الفصل الأول

عصر نجيب الحداد

١ ـ الحركة السياسية

كانت مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر مسرحاً لألاعيب السياسة فكثر فيها الشدّ والجذب بين طمع الدول الأوربية وأهواء الباب العالى وأثرَة الأسرة الحاكمة .

وكان الشعب المصرى قد اتقد فى جوانحه لهب الوعى الوطنى فهبّ يطالب بحقه المهضوم ويخوض الحديد والنار إلى غايته المنشودة تدفعه إليها عواملُ عدّة بدأت تفعل فيه فعلها منذ مطلع القرن :

هزّت المصريين أولا جلبةُ الحملة الفرنسية وما تركته فيهم من آثار قومية وثقافية فتحوا أعينهم فيها على مظاهر جديدة تحفل بها الحياة وتتطلع إليها النفوس .

وأثارهم ثانياً دوىّ الثورة الفرنسية الثانية فقد نبهتهم إلى معان جديدة لا تستقيم بغيرها الحياة الحرّة الكريمة فعرفوا صيحة الإنسان فى المطالبة بحقوق الإنسان ، وتردّدت على مسامعهم أصواتٌ تحمل إليهم نغمات الحرية والإخاء والمساواة فعصفت بالرماد الذى كانت تضطرم تحته جمرات الوطنية .

وحرّكت نفوسهم ثالثاً إلى التمرد والتحرّر مظالم قاسية رسفوا فى أغلالها وضربها عليهم الولاة والحكام من كل صنف وجيل .

وزادهم رابعاً فى الحق صلابةً وبأهداب الحرية والكرامة تمسكاً وتوثّقاً قيامُ الحرب السبعينية وما عكسته على الشرق من أضواء وظلال وما ضربته لبنيه من روائع الأمثلة فى الوطنية والبذل والتضحية [١] .

---

(١) طالع فى هذا كتاب « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » للأب لويس شيخو اليسوعى وكتاب « أدب المقالة الصحفية فى مصر » لعبد اللطيف حمزة ج ١ و ٣

كل هذه العوامل كانت نيرانها تتأجّج فى كل قلب من قلوب المصريين سواء من سكن منهم الحواضر والعواصم أم سكن الدساكر [١] والقرى .

ثم احتاجت تلك الحماسة الجيّاشة فى الصدور إلى اللسان الناطق والقلم المفصح المبين لكى تتنفّس وتنطلق إلى مداها فكانت منابر الخطباء ومنصّات المدرّسين مسرح اللسان المعبّر وكانت منابر الصحافة والتأليف حلبة للقلم يوجّه منها ويرشد وينفث الحمم ويذكى السعير .

وما من شكّ فى أن انتشار العلم منذ فجر القرن حتى العقد السابع منه قد ساعد على إعداد الوطنى الصالح وأن التفات المتعلمين شطرّ الغرب يغترفون من مناهله ويأخذون عنه الأمثلة الحسان كان له شأن أى شأن أدرك به الشعب المصرى أنه كغيره من الشعوب الجديرة بالحياة فى ظل العدل والحرية والإخاء والمساواة ولولا الاستعداد المكتسب وقد جاء يرهف الاستعداد الفطرى فى نفوس المصريين لما كان للسان والقلم ذلك الأثر الفعّال الذى هزّ النفوس وحفزها إلى التحرر والانطلاق .

وبينا النفوس فى وسوسة ثم فى همهمة وبينا هى تتلقى كلمات الخطباء والكتّاب تلقّىَ الأرض الخصبة للغيث العميم وبينا هى تثيرها منظومات رفاعة رافع الطهطاوى الوطنية وتستوعب «المرسلياز» نشيد فرنسا الوطنى وكان رفاعة أول من ترجمه ووضعه أمام أعين المصريين إذ يقبل على مصر فى سنة ١٨٧١ رجلٌ شرقى عظيم هو السيد جمال الدين الأفغانى فيلهب النفوس بتعاليمه ويدقّ فى مصر ناقوس الفكر الحر فيلتفّ حوله الطلبة والمريدون وتسرى آراؤه فى الأمة المصرية سريان الكهربا فكلٌّ بها مهتزّ وكل لها متأثر وكل يسعى إلى سماع أحاديث هذا الزعيم العظيم .

ومكث الرجل فى مصر ثمانى سنوات محفوفاً بالتجلة والإكرام ممتد الأثر والنفوذ لا ينى عن بثّ آرائه السياسية والفلسفية فى تضامن الشعوب الإسلامية وفى مشاطرة الأمة حياة الدولة وفى خطر التدخل الأجنبى حتى ثقل ظله على ذوى السلطان فأبعد من مصر ولكن بقى منه فيها روح وثّاب أبىّ يتردد فى جوانح تلاميذه من مثل المويلحى وعبدالله نديم وأديب إسحق ومحمد عبده

(١) الدساكر : جمع دسكرة : القرية العظيمة .

ويتوغل فى طبقات الشعب المستنيرة من أطباء ومدرسين وضباط وموظفين ويغرس فيهم بذور الوطنية فنمت وزكت وآتت أكلها .

وكانت الألسنة والأقلام من قبل مجيء جمال الدين الأفغانى إلى مصر وفى إبّان إقامته بها وبعد خروجه منها لا تفتأ تبثُّ الدعوة للحرية وتمعن فى تلقين النفوس معانى الوطنية فنرى مثلا عبدالله أبا السعود تلميذ الطهطاوى ينقل إلى العربية تاريخ مصر ويمهره بمقدمة يشرح فيها معنى حب الوطن فهو شيء أعلى من التّعلق بمسقط الرأس فإنه يقوم على حب العمل الجيّد وعلى الرغبة فى التعاون وعلى روح التضحية فى سبيل الخير العام .

ونرى كذلك حسيناً المرصفى فى «الكلم الثمان» يفسّر الكلمات التى كانت تشغل أذهان الطبقة النيّرة من مثل كلمة الوطن والحرية والحكومة وما لبث هذا ديدن الخطباء والكتاب حتى انبعث الضمير الوطنى فى القلوب فتذمّر وتمرّد ونشأ عن ذينك التذمر والتمرد ثورة عرابى .

وأخفقت الثورة وأعقبها الاحتلال البريطانى ولكن الضمير الوطنى بقى حيًّا يقظاً يملى على الألسنة والأقلام معانى الجهاد والكفاح فى سبيل الحرية والاستقلال والتخلص من الاحتلال . ولقد صرّحت إنجلترا غير مرة عقب تداخلها فى شؤون مصر ونجاح حملتها فيها أنها راغبة فى الجلاء عن الديار المصرية فقال «جلادستون» و«جرنفيل» إنهما لا ينويان تحميل بريطانيا أعباء نفقات جيش بمصر و«جرنفيل» هذا هو الذى أرسل إلى « بسمرك » يقول : « إن ذلك يكلفنا كثيراً جدًّا فضلا عن أنه يضطرنا إلى إنشاء تحصينات من الطراز الأول » [1] وها قد مضى على هذا التصريح نحو من سبعين عاماً ولم تجلُ إنجلترا جلاءً تامًّا عن أرض الكنانة[2] .

---

(١) هناك كتب كثيرة فى تاريخ مصر الحديث فإن شئت أن تقف على آراء بعض المؤرخين الغربيين فى ذلك التاريخ فطالع كتاب :

Gabriel Hanotaux. Histoire de la Nation Egyptienne.

وكتاب Précis de l'Histoire d'Egypte, par *Divers Historiens* & *Archéologues*, Tome IV.

(٢) تمت المرحلة الأخيرة من هذا الجلاء فى شهر يونيو (حزيران) سنة ١٩٥٦ تنفيذاً للاتفاق الذى أسفرت عنه المفاوضات بين الحكومتين المصرية والبريطانية وتلك لعمرى مأثرة جليلة خالدة وفوز مبين لرجال الثورة الأحرار .

وكانت الحال بسورية ولبنان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر على شىء من الهدوء والاستقرار ولكنها كانت على جانب كبير من الضنك والضيق فإذا عدنا القهقرى إلى السنوات العشر التى سبقت منتصف القرن وإلى السنوات العشر التى تلته وجدنا لبنان ساحة دامية للثورة الأهلية بين الدروز والنصارى فقد أوغر رجال الدولة التركية صدور الدروز وأثاروا حفائظهم فخفّوا فى سنة ١٨٤١ إلى السلاح يُعملونه فى رقاب إخوانهم النصارى ثم أعادوا الكرة فى سنة ١٨٤٥ ثم استأنفوها فى سنة ١٨٦٠ وبعثوها فى هذه المرة فتنة عمياء طاحنة امتدّ لهبها إلى سورية وأسفرت عن نظام جديد بلبنان هو نظام المتصرفية فرضته الدول الغربية عليه فلقى فى ظله بعض الأمن والعافية ولكنه لم ينج من عنجهية المتصرفين الأتراك ولا من فساد بعض هؤلاء المتصرفين وجشعهم فى جمع المال من أى سبيل كان[1] .

وانكمش لبنان فى حدوده الضيقة على عهد المتصرفية فلا سهل ولا ثغر إلا القمم الجرد والصخر الجديب فكان على أهله أن يستنبتوا الحجر الصلد والأرض القاحلة فما تمنّعا مع ذلك على عزائمهم وهممهم .

وكان من أثر الحرب الأهلية فى سنة ١٨٦٠ ومن أثر الضيق الذى جثم على صدر الجبل أن نزح كثير من السكان إلى المدن والسواحل ثم إلى بلاد الله الواسعة يلتمسون فيها الرزق الحلال من شقّ النفس وعرق الجبين وجهد الفكر .

وليست هجرة السوريين واللبنانيين بالأمر الطارئ عليهم عقب ثورة الدروز فإنما سنّوا لأنفسهم الهجرة وأقبلوا عليها منذ عهد الاحتلال العثمانى

---

(١) من هؤلاء المتصرفين الذين جنحوا إلى الرشوة والفساد متصرف اسمه «واصا باشا» وفيه يقول تامر الملاط راثياً مؤبناً معرضاً :

قالوا قضى «واصا» وواراه الثرى ... فأجبتهم وأنا الخبير بذاته
رنوا الفلوس على بلاط ضريحه ... وأنا الكفيل لكم برد حياته

ولقد اشتهر هذان البيتان بين الخاصة والعامة شهرة غريبة حتى اتفق أن مكاريين كانا عائدين مرة من بيروت ووقفا يتحاسبان فى الحازمية حيث ضريح «واصا» فسقطت قطعة من الدراهم ورنت فقال أحدهما للآخر مازحاً : احذر أن يستمع «واصا» فيقوم من قبره . (ديوان الملاط . الطبعة الأولى) .

فقد نفّرتهم مظالم ذلك العهد وفرّقتهم أيدى سبا[١] فى أنحاء المعمورة وإنهم لقوم يجرى فى عروقهم حب الأسفار والمغامرة وركوب البحر وحب الاتجار مع القصىّ النائى من الأقطار . فالشامى رجل ولوع بالحرية والاستقلال صبور على المكاره معتدّ بنفسه إلى أبعد حدود الاعتداد بالنفس واثق بما حباه الله به من ذكاء وثبات وجلد فإن ضاق به الرزق فى وطنه طلبه فى أبعد الأوطان فعبقريته وعزيمته كفيلتان بأن توفّرا له ذلك الرزق ولو كان فى جبهة الليث أو فى قبة الفلك[٢] وإذا مسّه الضر والأذى فى بلده هجره إلى البلد الذى يعيش فيه حرًّا آمناً مطمئناً .

ومن الطبيعى أن يكون وادى النيل هو المهجر القريب الذى تطلعت إليه قلوب الشاميين فالجوار واللغة ووحدة العادات أهابت بالأدباء الأحرار إلى الفرار من ربقة الرقيب العثمانى وإطلاق أقلامهم فى الوادى المكفولة فيه حرية الأقلام كما أهابت بأهل السعى إلى النزوح عن الجبل القاسى إلى السهل الخصيب حيث السعة والأمن والرخاء[٣].

والنازحون إلى مصر من حملة الأقلام فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر لقوا فى مصر أهلا بأهل وإخواناً بإخوان فشاركوا المصريين فى الحياة العامة وصهرتهم البوتقة المصرية فعاشوا أوفياء لمصر يحسّون بإحساسها وتخالج قلوبهم آلامها وآمالها وكان لهم فى الصحافة والأدب شأن جليل وقفوا فيه أقلامهم على خدمة مصر والمصريين[٤] .

---

(١) سبأ : حى من اليمن تفرق أهله على أثر السيول التى غمرتهم من تهدم السد الذى كانوا يحجزون به الماء ويقال للمتفرقين : ذهبوا أيدى سبأ وأيادى سبأ . قال ذو الرمة :

فيا لك من دار تحمل أهلها أيادى سبا بعدى وطال اجتنابها

(٢) إشارة إلى العزة والمنعة كما قال الشاعر العربى القديم :

ليت الملاح وليت الراح قد جعلا فى جبهة الليث أو فى قبة الفلك
كيلا يقبل ذا ثغر سوى ملك ولا يطوف بحانات سوى ملك

(٣) اقرأ كتاب « السوريون فى مصر » للخورى بولس قرألى . وكتاب « والشام فى الغابر والحاضر » للدكتور أسعد طلس .

(٤) ذلك كان ولا يزال مذهب جميع الشاميين النازلين بضفاف هذا الوادى الأمين فإن كان شذ عنه نفر قليل فلا عبرة فى الشواذ .

٢ ـ البيئة الاجتماعية

تطلع المصريون إلى الغرب من زاوية السياسة فوقعت أبصارهم فيه على المعانى الجديدة لحرية الشعوب وحقوق الإنسان ونظام الحكم وتطاعوا إليه من أفق الاجتماع فاسترعت انتباههم حضارته المتألقة وعاداته البرّاقة فاندفعوا يقتبسون من أنوار مدنية جديدة عليهم استحوذت على ألبابهم وأفكارهم فأغفلوا الملابس الشرقية واستبدلوا بها الملابس الإفرنجية وانصرفوا فى فن البناء عن الأطرزة العربية الجميلة التى كانت متعة النواظر فى القصور والدور إلى احتذاء الهندسة الأوربية التى توفّر لهم أنظمتها أسباب الراحة .

ومال الشبان فى أوقات فراغهم عن الجمود والقعود إلى الألعاب الرياضية يزاولونها ويقضون فيها الساعات الطوال .

وتسربت عادات المجتمع الأوربى إلى عادات الأسرة الشرقية فى الأطعمة والمآدب والأزياء ونخلّق القوم بالأخلاق الغربية فى أحاديثهم ونداواتهم وعكفوا على اللغات الأجنبية يتحدثون بها أو يمزجون طرفاً منها باللغة العربية تأنقاً وتظرفاً[١] .

وخرجت المرأة كذلك عن العادات الشرقية المأثورة وتراخى حبل المحافظة على العادات العربية والسجايا العربية واندفع الناس على الجملة إلى التشبه بالحياة الغربية يأخذون منها الغثّ والسمين والصالح والطالح مفتتنين بالجديد متطبعين بطبائع يأباها الخلق العربى المحافظ فغرقت البلاد فى موجة من التفرنج امتدت إلى أصول الأخلاق فعصفت بها حتى أصبحت المضاربة بالمال والمقامرة عادة مستحكمة فى النفوس وأصبحت الرشوة والمحاباة داء ينفث سمّه فى شرايين المجتمع وحتى كاد التأنق عند بعض الشبان ينقلب إلى لوثة من الرقاعة والفساد فأفاق العقلاء من غفوتهم وهبّوا يدرؤون عن الوطن وأبنائه وبناته هذا الوباء الجارف الذى نقلته إليهم ريح الحضارة الغربية

وأسهمت الصحافة فى هذا الواجب الخلقى الوطنى إسهاماً كبيراً وقام الشعراء

---

(١) انظر فى هذا كتاب :

Précis de l'Histoire d'Egypte, par *Divers Historiens & Archéologues*.

والأدباء ينددون بتهالك الشباب على المفاسد ومن هؤلاء الشعراء والأدباء كان نجيب الحداد .

ومن الظواهر الاجتماعية فى هذه الحقبة من القرن التاسع عشر مناداة الأقلام بتحرير المرأة فقد بدأ صريرها فى هذا الموضوع الخطير ضعيفاً خافتاً ثم علا دواليك حتى نهض قاسم أمين[١] بالدعوة لتحرير المرأة فانقسم الناس بين مؤيّد ومفنّد وكان جمهرة الفضلاء يرون رأيه ولا يجاهرون به فكان هو أشجعهم فى إعلان رأيه صريحاً واضحاً والوقوف دونه مجاهداً مدافعاً .

على أن المناداة بتحرير المرأة لن يكون لها الصدى المرجوّ إذا لم يكن هناك مدارس تحرّرها أولا من ربقة الجهل وتنقلها إلى مراتع العلم والمعارف فأول مدرسة للبنات كانت قد أنشئت بالقاهرة فى سنة ١٨٧٣ ولولا مدارس البعثات الأوربية من مثل مدرسة راهبات الراعى الصالح بشبرا (أنشئت سنة ١٨٤٤) ومدرسة راهبات القديس منصور فى حى الموسكى (أنشئت سنة ١٨٤٥) ثم فى شبرا . ومدرسة الرسالة الفرنسسكانية الإيطالية فى كلوت بك بالقاهرة (أنشئت سنة ١٨٥٩) ثم بالمنصورة وكفر الزيات والإسمعيلية لولا هذه المدارس الأجنبية للبنات وقد نهضت وحدها فى أول الأمر تضطلع بعبء تهذيب الفتاة وتثقيفها وهى من القلة بحيث لا تفى بحاجات أمة كالأمة المصرية لما كان للفتاة المصرية أى معهد تتحرر فيه من الجهل ونستقبل الحياة على شىء من العلم والدراية والمعرفة.

فوجود هذه المدارس وعناية بعض الأسر بتهذيب بناتها فى جوّ خاص كان النواة لنهضة المرأة المصرية مجسّمةً فى عائشة التيمورية الأديبة الشاعرة التى تلقت النحو والعروض على فاطمة الأزهرية وستيتة الطبلاوية [٢] فدعوة تحرير المرأة كانت دعوة لازمة واجبة ما لبثت على مرور الزمن أن ارتفع صوتها فوق أصوات المعارضين ونعمت البلاد بخيراتها على النحو الذى نراه اليوم فى منتصف القرن العشرين .

ولئن عددنا التمثيل جانباً من جوانب البيئة الاجتماعية وجدنا التمثيل العربى

---

(١) انظر ترجمته فى « تراجم مشاهير الشرق » ج ١ ص ٣٠٠

(٢) انظر «تاريخ آداب اللغة العربية» لجرجى زيدان ج ٤ ص ٢١٤ (الطبعة الثانية)

فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر قد بدأ يستقيم له كيان فى مصر وتفتح له فى بعض الأحيان أبواب دار « الأوبرا » ويعنى به الحكام والولاة وتتألف فيه الأجواق كجوق يوسف خياط وسليمان القرداحى ومن أعضائه جوقة الشيخ سلامة حجازى وكجوق أبى خليل القبانى وإسكندر فرح ومال إليه الكتّاب يغذونه بالمسرحيات المترجمة « وأشهر هؤلاء الكتاب الشيخ نجيب الحداد وأشهر ما كان يمثل على المراسح المصرية من تأليفه أو تعريبه حتى جرى كثير من أشعارها وأناشيدها على الألسنة مجرى الأمثال[1] » .

كذلك كان للموسيقى والغناء شأنهما الرفيع فى ذلك العهد فكان معظم الروايات التى تمثل على المسارح يتخللها الغناء اجتذاباً للجمهور الذى يميل إلى سماع الغناء ويطرب له وكان الموسيقيون أو المغنّون يجوّدون صناعتهم ويقتبسون من تركيا الأصوات والأنغام التى تلائم الذوق العربى وتهزّ أسماع العرب وأفئدتهم.

٣ ـ النشاط الثقافى

كان النشاط الثقافى فى الحقبة التى تعنينا من القرن التاسع عشر ظاهر الأثر وضّاح الغرر فقد أينعت فيها ثمار البعثات العلمية التى نهلت من ينابيع الغرب وقام الأزهر بنصيبه من البعث والانطلاق والتجدد بعد الفتوى التى أصدرها الشيخ محمد الإنبابى شيخ الجامع الأزهر وأمّن عليها الشيخ محمد البنا مفتى الديار المصرية بجواز « تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبّر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف » وبعد روح الإصلاح التى بثها محمد عبده فى الأزهر واستهدى بها نفر من تلاميذه .

ولقد كانت تلك الحقبة آهلة بالعلماء والأدباء والشعراء يدور إنتاجهم إلا أقلهم فى فلك القديم ومحاكاته . على أن طابع تلك الحقبة إنما يتجلى فى أمرين اثنين هما الصحافة وترجمة الروايات .

---

(١) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان ج ٤ ص ١٣٣ (الطبعة الثانية) .

شهدت مصر فى سنة ١٨٦٥ ميلاد أول صحيفة مصرية بعد صحيفة « التنبيه » على عهد الفرنسيين وبعد « الوقائع المصرية »تلك هى مجلة « اليعسوب » الشهرية لمنشئيها محمد على باشا الحكيم وإبرهيم الدسوقى ومنذ ذلك التاريخ حتى نهاية القرن التاسع عشر زخرت مصر بالصحف والمجلات السياسية والأدبية أنشأها المصريون أو أصدرها الشاميون الذين هرعوا إلى وادى النيل واتخذوه ميداناً لسوابق أقلامهم (١) .

فجال هؤلاء وأولئك فى السياسة والأدب وأنشأوا فن المقال الصحفى وكان للشاميين أثرهم « وفضلهم على الصحافة الشعبية المصرية »(٢) .

أما الترجمة فيبدأ كذلك عهدها المنظم فى زمن الحملة الفرنسية فالمنشور الذى أمر بونابرت بتوزيعه على أهل الإسكندرية قد ترجمه « ڤنتور » وطبعه المستشرق « حنا يوسف مرسيل » مدير مطبعة الحملة وقام بهذا العمل على ظهر الباخرة «لوريان»(٣) ثم تتسع دوائر الترجمة فى مصر طوال العقود الثمانية من القرن التاسع عشر يقوم بها مستشرقون وشرقيون يديرونها فى نقل الكتب العلمية والأدبية أو المحاضرات ويستخدمونها فى الأعمال الحكومية حتى كان الربع الأخير من ذلك القرن فجدّ جدّها واتسعت دائرتها أيّما اتساع وتناولت مختلف الفنون والشؤون ودارت اللغات الأجنبية على الألسنة وشجعت الحكومة الترجمة والمترجمين ونهض بها غير واحد من الأدباء ممن لم يعوّلوا فى نشر كتبهم المترجمة ورواجها إلا على

---

(١) نذكر من صحف المصريين : « وادى النيل » أنشأها أبو السعود أفندى سنه ١٨٦٦ و « نزهة الأفكار » الأسبوعية لإبرهيم الموبلحى ومحمد عثمان جلال صدرت سنة ١٨٦٩ ولكن لم تعش غير أسبوعين و « روضة المدارس » صدرت سنة ١٨٧٠ وكتب فيها كثير من الأدباء والعلماء و « الوطن » لميخائيل عبد السيد أنشئت سنة ١٨٧٧ و « المؤيد » للشيخ على يوسف . و« الأستاذ » لعبد الله نديم أصدرها سنة ١٨٩٢

ونذكر من صحف الشاميين : « الكوكب الشرقى » لسليم باشا حموى (١٨٧٣) و « الأهرام » لسليم وبشارة تقلا (١٨٧٥) و « المقطم » لصروف ونمر ومكاريوس (١٨٨٨) إلى كثير غيرها ما بين يومية وأسبوعية وشهرية من مثل « المقتطف » و « الهلال » و « اللطائف » و « لسان العرب » و « أنيس الجليس » . . .

(٢) « أدب المقالة الصحفية فى مصر » لعبد اللطيف حمزة ج ١ ص ٢٧

(٣) « حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر » لجاك تاجر ص ٤

الشعب فكسب العصر زاداً طيباً من المعارف ما بين علمية واجتماعية واقتصادية وسياسية وأدبية وظفرت المكتبة العربية بنفائس من كتب الغرب .

غير أن العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر قد تميزا بترجمة القصص والروايات التمثيلية . ولما كان فن التمثيل العربى بمصر شامىّ الأرومة فقد مهره الأدباء السوريون واللبنانيون بطائفة صالحة من الروايات التمثيلية نقلوها من اللغة الفرنسية أو اللغة الإنجليزية ثم شرعوا يعالجون التأليف فحذا حذوهم المصريون ترجمة وتأليفاً أو اقتباساً وتمصيراً كرواية « ترتوف » نقلها عثمان جلال وسبكها فى قالب مصرى وسمّاها « الشيخ متلوف » . ولم ينحصر نشاط المترجمين فى الروايات التمثيلية بل تعدّاه إلى مختلف ضروب القصص فلقيت هذه من الجمهور إقبالا كبيراً وتسرّبت المعانى والأساليب الإفرنجية إلى الأدب العربى شعره ونثره على أسنّة أقلام المترجمين يبرزها الضعيف منهم فى ثوب ركيك مهلهل ويجلوها القوىّ الكفىّ فى برود قشب من الدّيباجة العربية .

ويتم صورة ذلك النشاط الثقافى فى تلك الحقبة توافر المحافل والأندية والأبهاء الأدبية وقيام الجماعات العلمية والأدبية[١] وتوفّر المطبعة الأميرية والمطابع الأهلية على إخراج نفائس الكتب العربية ثم ارتياد الناس للمكتبات العامة[٢] ينهلون من معينها هذا إلى ترددهم على المتاحف[٣] يرهفون بذلك أذواقهم ويصقلون ملكاتهم وإلى ازدياد عدد المتعلمين ممن يتخرجون فى المدارس المصرية أو المدارس الأجنبية بمصر أو ممن يشدّون الرحال إلى بيروت ليتلقوا العلم فى الكلية الأمريكية[٤] أو كلية الآباء اليسوعيين[٥] أو فى غيرهما من المدارس الوطنية هناك[٦] .

---

(١) من مثل « الجمعية الجغرافية » (١٨٧٥) و « جمعية المعارف » (١٨٦٨) و « الجمعية الخيرية الإسلامية » (١٨٧٨) .

(٢) دارالكتب (١٨٧٠) والمكتبة الأزهرية (١٨٧٩) و « المكتبة البلدية بالإسكندرية » (١٨٩٢)

(٣) « المتحف المصرى » (١٨٦٣) و « متحف الفن العربى » (١٨٧٠) .

(٤) كانت أول عهدها مدرسة فى قرية « عبية » بلبنان أنشئت سنة ١٨٤٧ ثم حولت إلى كلية ونقلت إلى بيروت فى سنة ١٨٦٦

(٥) أنشئت أولا فى « غزير » بلبنان ثم نقلت إلى بيروت فى سنة ١٨٧٤ .

(٦) « كالمدرسة البطريركية للروم الكاثوليك » (١٨٦٥) و « مدرسة الحكمة » للموارنة (١٨٦٥) و « مدرسة الثلاثة الأقمار » للروم الأرثوذكسيين نقلت من « سوق الغرب » إلى بيروت فى سنة ١٨٦٦